المبحث الثاني
الحرية عند الغرب

مفهوم الحرية عند الغرب:

يعد مفهوم الحرية من المفاهيم والمصطلحات الواسعة التي تعددت فيها الرؤى. وقد كان هناك مفهوم سائد في الممالك الوثنية إبان هيمنة الكنيسة على العقلية الأوربية؛ حيث كانوا يزعمون أنهم أبناء الحرة؛ ولذلك فهم يقتلون كل من يعارضهم، حتى وإن كان من أتباع الكنيسة، ومثال ذلك واضح في محاكم التفتيش، فلا رأي، ولا تفكير، ولا تعبير، ولا نشر إلا بإذن الكنيسة، فهي وحدها وصفوة الملوك والنبلاء، أقدر الناس على الوصول إلى الرأي الصائب ومعرفة الحقيقة.

ثم جاءت فلسفة الحرية المطلقة كنقيض للفلسفة التسلطية، فقالت بالحرية المطلقة، وهي: الخلوص من كل قيد، والقدرة على الفعل مطلقاً.

ولقد أدرك الفلاسفة في المجتمعات الغربية فساد الحرية الفوضوية، التي تزعم: أن الحرية هي نقيض الالتزام، فظهرت فلسفة الحرية الاجتماعية، وانبثقت منها نظرية الحرية والمسؤولية الاجتماعية. وقد انقسم المفكرون والفلاسفة في عصر النهضة، في تعريف الحرية إلى مدرستين:

المدرسة الأولى، ترى أن الحرية هي: «قدرة الإنسان، أو سلطته في التصرف».

وهذه المدرسة ترى أن الحرية إرادة، ولهذا تعرفها بأنها: («قدرة الإنسان أو سلطته في أن يفعل، أو أن يقدم على أن يفعل أي تصرف معين».

أما المدرسة الثانية فترى أن الحرية: «حكم العقل».

وهذه المدرسة ترىٰ أن الحرية إرادة خاضعة للعقل، أو هي: «حكومة العقل والضمير»[١].

وقد أشار معجم (المصطلحات القانونية) إلىٰ أن الحرية تعني: «الخير الأسمىٰ، بالنسبة للفرد أو للشعب؛ بهدف العيش بعيداً عن أي استعباد، أو استغلال، أو اضطهاد، أو هيمنة داخلية أو خارجية»[٢].

وهناك من عرف الحرية بأنها: «حالة الفرد الذي لا ترد عليه أية قيود، ويتصرف حسب إرادته وطبيعته»[٣].

علاقة الحرية بقضية المرأة:

لم تحظ المرأة في تاريخ الحضارات القديمة بأي نظرة إنسانية كريمة، وإنما كانت عند الرومان، واليونان، وفي شريعة حمورابي، وعند الهنود، وفي شريعة اليهود المحرفة، وشريعة النصارىٰ المحرفة وغيرهم، كانت محتقرة، وملعونة؛ لأنهم يرون أنها أغوت آدم (عليه السلام)، ورجساً من عمل الشيطان، بل هي أحياناً تعد في عداد الماشية المملوكة.

وأما الحضارة المصرية القديمة فيرىٰ بعضهم أنها أعطت المرأة حقوقاً أشبه بحقوق الرجل، ولكنها أدنىٰ من منزلة الرجل.

وأما عند العرب في الجاهلية، فكانت المرأة تئن من ظلم المجتمع لها، فلا حق لها في الإرث، وليس لها حق علىٰ زوجها، وكانت تورث كرهاً، وكان الآباء يتشاءمون من ولادة الأنثىٰ، كما أن بعض القبائل كانت تئد البنات خشية

---

(١) انظر: حرية الرأي في الميدان السياسي/ أحمد جلال حماد ص٢٧، و من الحريات إلىٰ التحرر/ محمد عزيز الحبابي ص٢٣.
(٢) نقلاً عن: الحريات العامة وحقوق الإنسان/ أحمد البخاري وأمينة جبران ص١١، ١٢.
(٣) المرجع السابق ص ١١، ١٢.

الفقر أو العار[١].

ولما نهض فلاسفة أوربا ومفكروهم في القرن الثامن عشر الميلادي، رفعوا شعار حماية حقوق الفرد في المجتمع، وطالبوا بالحرية الفردية، كان بين أيديهم ذلك النظام التمدني الفاسد، الذي كان قد تولد بتفاعل الاتحاد الثلاثي من نظم الأخلاق، وفلسفة الحياة المسيحيتين، ونظام الإقطاعية، وقيّد الروح البشرية بقيود مثقلة غير طبيعية، وسد في وجهها جميع سبل الرقي والازدهار، فالنظريات التي قدمها أساطين أوربا الجديدة، وأقطاب التفكير الجديد فيها؛ للقضاء على ذلك النظام الفاسد، واستبدال نظام جديد به، أسفرت عن ثورة فرنسا الشهيرة.

وكل ما فعلوه في بدء هذا العهد الجديد لإنهاض المرأة من كبوتها كان له أثر محمود نسبياً في الحياة الاجتماعية، وإن كان لا يخلو من قصور واضطراب؛ ولكن النظريات التي تولدت من بطنها هذه الحركة كانت تتسم من أول أيامها بالنزوع إلى الإفراط، والميلان عن القصد، ثم نما هذا النزوع، واشتد في القرن التاسع عشر الميلادي، وما كاد يبتدئ القرن العشرون، حتى بلغ نظام الاجتماع الغربي نهاية الإفراط، والتباعد عن القصد، وهذه النظريات التي أسس عليها بنيان الاجتماع الغربي الحديث يمكن حصرها في ثلاثة جوانب، هي:

الجانب الأول: المساواة بين الرجال والنساء:

فبالنسبة للمساواة، لم يكتفوا أن يكون الرجل والمرأة متساويين في الحقوق البشرية والمنزلة الخلقية فحسب، كما دعا إلى ذلك - مثلاً - الفيلسوف المفكر الإنجليزي (جون ستيوارت ميل)، حيث قال: «إن مبدأ الحرية يقضي بأن يكون

(١) انظر: واقع المرأة الحضاري في ظل الإسلام/ آمنة فتنت مسيكة ص٢٩٨. وحق الحرية في العالم/ وهبة الزحيلي ص٢٥٧.

الفرد حر التصرف، يفعل كما يشاء في شؤونه الخاصة، ولكنه لا يجيز البتة أن يكون الفرد حر التصرف - يفعل كما يشاء - في شؤون غيره، بحجة أن شؤون هذا الغير هي عين شؤونه الخاصة. وإذا كان يتحتم على الحكومة أن تحترم حرية الفرد في شؤونه الذاتية، فمن واجبها أن تراقب - بعين يقظى - كيفية استعماله ما تخوله من النفوذ على غيره. ولكن من العجب أن هذا الواجب المتحتم يكاد يهمل إهمالاً تاماً في مسألة العلاقات العائلية، التي ترجح - لخطورة شأنها وتأثيرها المباشر في سعادة الإنسانية - بغيرها من المسائل قاطبة. ومما يتناقض مع هذه الفكرة ما يقع بين الأزواج من تسلط الزوج على الزوجة، إذ يبلغ مبلغ الاستبداد، وهذا الأمر يحتاج إلى الإسهاب في تقبيحه للسببين الآتيين:

أولاً؛ لأن استئصال شأفة هذا الشر لا تقتضي إلا تسوية المرأة بالرجل فيما يخول من الحقوق، وفيما يتمتع به من حماية القانون.

ثانياً؛ لأن الذين يناضلون عن هذا الضرب من الظلم، لا يفعلون ذلك بحجة الحرية، بل يصرحون - جهاراً - بأن حجتهم في هذا النضال هي القوة»[1].

بل إن هؤلاء الفلاسفة والمفكرين دعوا إلى أن تؤدي المرأة في الحياة المدنية ما يؤديه الرجل من الأعمال، في جميع المجالات: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعسكرية، والإدارية، وغيرها من مجالات الحياة، وأن يُرخَى لها من عنان القيود الخلقية مثل ما أرخي للرجل من ذي قبل.

وهذه الفكرة الخاطئة للمساواة جعلت المرأة غافلة بل منحرفة عن أداء واجباتها الفطرية ووظائفها الطبيعية التي يتوقف على أدائها بقاء المدنية، بل بقاء الجنس البشري بأسره، واستهوتها الأعمال والحركات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية.

---

(١) انظر كتابه: الحرية ص١٥٣، ترجمة طه السباعي.

وهكذا فهمت المرأة الغربية الحرية فهماً معكوساً، وفي ظل هذه الحرية الزائفة تحررت المرأة من الآداب، والأخلاق، وداست على شرفها وواجباتها أماً، وزوجة، وربة منزل، فتهدم المجتمع بأكمله.

الجانب الثاني: استقلال النساء بمعايشهن:

وبالنسبة لاستقلال النساء بمعايشهن ، فإن هذا الأمر جعل المرأة في غنى عن الرجل، فأدى هذا إلى تعدي الرجال عليها؛ لأنها خسرت الرجل الذي يحميها سواء كان أخاً أو زوجاً.

وهذا الاستقلال في المعيشة أجبر المرأة على كسب عيشها بكد يمينها؛ مما أدى إلى استغلالها، إذ صارت تقبل أن تعمل بأي عمل تجده، مهما كان ضئيل المردود، وتقبل بأي عمل مهما كان مجهداً أو مصحوبًا بالتنازلات الشرفية وخاصة عندما يصيبها المرض.

كما فقدت المرأة الهدوء في حياتها، والاستقرار في بيت خاص بها. فهي في كل ليلة في بيت صاحب لها، أو طالب لها، أو عشيقها؛ لقضاء شهوته معها، ثم ترجع آخر الليل إلى غرفتها وحيدة خائفة؛ وذلك لأنها لم تلزم نفسها بزوج يحميها ويرعاها، ويؤويها في كنفه، ويشبع غريزتها الجنسية، كما أنها حرمت من نعمة الأطفال؛ لأنها لم تتزوج كغيرها والابن غير الشرعي معلوم مصيره . وهكذا خسرت الأمان والعطف، والراحة والاستقرار والأنس، بل فقدت السعادة كلها.

الجانب الثالث: الاختلاط المطلق بين الرجال والنساء:

لقد استحث الاختلاط المطلق بين الرجال والنساء غريزة التبرج والعري في النساء، فالجاذبية بين الجنسين موجودة لا تنكر، وتزداد قوة واشتداداً باختلاط الجنسين، ومن شأن هذا المجتمع المختلط أن تنشأ فيه غريزة جديدة في الجنسين، وهي الظهور بأبهى مظاهر الزينة وأشدها جذباً للجنس الآخر. ولما لم تعد

الاستزادة من أسباب الزينة والتجمل شيئاً ينكر ويعاب ـ بسبب نظرية الحرية الشخصية ـ ، بل يستحسن التبرج السافر، والأخذ بكل أسباب الفتنة والاستهواء، فلا يقف هذا الافتتان بإبداء الزينة والجمال عند حد، بل يتجاوز الحدود كلها، حتى ينتهي أمره إلى آخر غايات العُرْي المشين، وهذا ما وصلت إليه الحال في المدنية الغربية، فقد ازدادت ـ ولا تزال تزداد ـ في المرأة الغربية غريزة التجمل، وحب الظهور بالمظاهر الجذابة، بل وصل الأمر إلى ظهورها عارية[١]، واعتبار هذا الأمر من الحرية الشخصية، التي لا يجوز لأحد التدخل فيها[٢].

إن التصور المتطرف للحرية هو الذي حدثت بفعله الثورة الفرنسية، فأخذت تبطل كثيراً من النظريات الخلقية، وتهدم القواعد المدنية والدينية. ولما تحقق عند أصحاب الثورة أن سقوطها وانهدامها ـ أي هذه النظريات ـ هو سبيل الرقي ومبعث الحرية، استنتجوا منه وقرروا أن كل نظرية وكل طريق عملي وصل إليهم من أسلافهم، عقبة معترضة في طريق الرقي والازدهار، ولا يمكن التقدم إلى الأمام بدون إزاحتها عنه.

وقد أكد هذا الأمر الأدباء المشهورون في كتاباتهم ورواياتهم، فقد جاء في إحدى الروايات الأدبية الفرنسية[٣] ـ تأكيداً لحرية المرأة في أن ترتمي في حضن من

(١) انظر: الحجاب/ للمودودي ص٢٥ وما بعدها.

(٢) وأكتفي بمثال واحد للدلالة على هذا الأمر، فقد نشرت صحيفة «الرياض» في عددها رقم (١٢٠٣١) الصادر بتاريخ (١٠/ ٣/ ١٤٢٢هـ ـ ٢/ ٦/ ٢٠٠١م)، خبراً عن قرار شرطية أمريكية الموافقة على الظهور عارية في مجلة. ولما انتقدت على فعلها هذا ردت بالقول: (لا يعدو الأمر كونه تعرياً، إنه أمر عادي نراه كل يوم!!)، وقال متحدث باسم المجلة بأن الشرطية أكدت أنها قررت التعري أمام مصوري المجلة، حتى تؤكد أن النساء اللواتي يمارسن مهنة صعبة وخطيرة يهيمن عليها الرجال، قادرات على الاحتفاظ بأنوثتهن!!.

(٣) للأديبة جورج صاند، وهي ليست بمؤدبة ـ نشأت في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ـ، فقد خرجت على جميع المبادئ الأخلاقية، إذ اتخذت الأخدان على كونها متزوجة من رجل، حتى آل الأمر بينها وبين زوجها إلى الفرقة. وغدت بعد ذلك تستبدل زوجاً بزوج، ولم تعاشر أحداً منهم أكثر من عامين، وقد كانت تخادن علناً أكثر من ستة أشخاص. انظر: الحجاب/ المودودي ص٥٣.

تشاء، بدون رباط النكاح المقدس - : «لم أبدل رأيي، ولم أصالح المجتمع، وإن النكاح في رأيي لأفظع الطرق الاجتماعية، وأكثرها همجية!! وإن كتب للجيل الإنساني أن يتقدم حقاً في طريق العقل والعدل، فليأتين عليه حين من الدهر يلغي النكاح، ويستبدل به طريقة أخرىٰ لا تقل عنه قداسة وطهراً، ثم تكون أدنىٰ منه إلىٰ التهذب والإنسانية!! . حينئذ سيتألف الجيل الإنساني من رجال ونساء متسامحين، لن يحجر أحد منهم علىٰ حرية الآخر. أما الآن فقد بلغ من أثرة الرجال وفسولة النساء ألا يطالب أحد منهم بقانون أكرم، وطريقة أمثل من هذا القانون - أي النكاح - !! . وما دام القوم علىٰ هذه الحال من فقد الصلاح وضعف الضمير!!، فليرسفوا في هذه القيود الفادحة، ولا أبالي!!»[١] .

ثم أتت طائفة أخرىٰ من رجال الأدب وعلماء الأخلاق وكتاب المسرحيات[٢]، استفرغوا جهودهم؛ لإشاعة الفكرة القائلة بأن الحرية والتمتع بلذات الحياة في ذاته حق فطري للإنسان، ومن عدوان المجتمع علىٰ الفرد أن يقيد حقه هذا بسلاسل الأخلاق والتمدن.

نقد علاقة الحرية بقضية المرأة:

إن مفهوم حرية المرأة عند الغرب - قد أدىٰ إلىٰ ظهور ما يسمىٰ (بالحركة النسوية[٣]، تلك الحركة التي قامت علىٰ تحطيم الأخلاق، وهز الأسس

(١) المرجع السابق ص ٥٥، ٥٦ .

(٢) مثل : (الكسندر دوما) و (ألفرد ناكة) .

(٣) هي حركة تشكلت تدريجياً علىٰ مدىٰ قرنين من الزمان (التاسع عشر والعشرون ميلادي) في أوربا وأمريكا، من خلال عدة مؤسسات واتحادات ومنظمات نسائية، مثل : الرابطة القومية لحق المرأة، والمنظمة القومية للنساء، والاتحاد النسائي العالمي، وغيرها من المؤسسات. وكانت هذه الحركة تطالب في أول الأمر ببعض حقوق المرأة كالتعليم وحق العمل، ثم أصبحت تطالب بحق المرأة السياسي، وأخيراً أصبحت تنادي بالمساواة التامة مع الرجل في جميع مجالات الحياة، واعتبار العلاقة مع الرجل علاقة تنافس وتضاد، ونتيجة لذلك أصبحت هذه الحركات تنادي بالحرية التامة للمرأة (ومن ذلك دعوىٰ ملكية المرأة لجسدها، وحقها في إقامة علاقات جنسية مع بنات جنسها) . للاستزادة انظر : الحرية ونضال المرأة الأمريكية/ سارة م. إيفانز - ترجمة أميرة فهمي ص٨٧، ١٩٤، ٣٦٥ . وأضواء علىٰ الحركة النسائية المعاصرة/ روز غريب ص٢٤ وما بعدها .

الفكرية، والمبادئ الأساسية، التي يقوم عليها المجتمع، ونسفها؛ من أجل إقامة ما يريدون من أفكار هدامة، قامت على الشعور بالذاتية المنعزلة المتمردة، فهي تعادي الرجل، وتجعل العلاقة معه علاقة حرب مستعرة، وتعامله على أنه شيطان شرير.

وهذه الحركة قامت على فكرة تقول: إن بناء المجتمع يقوم على الفرد وليس على الأسرة أو العائلة؛ ولهذا فإن الخطط والسياسات التي ترسم للمجتمعات والأمم هناك، تبنى على الفرد، ولم يعد للعائلة ولا للأسرة شأن يذكر، في خضم دراساتهم، فالفرد- بفرديته- هو المقصود رجلاً كان أو امرأة.

إن هذا المفهوم الغربي لحرية المرأة، أدى إلى انقلاب القيم وانعكاس المفاهيم، وارتبط بمصالح مادية وإعلامية، وتيارات اجتماعية، تعادي الدين والعقائد، تروج للإلحاد والإباحية والشذوذ الجنسي، وهكذا يتجسد مفهوم تحرير المرأة- في منهجهم- في صنع امرأة مشاكسة عدوانية، محاربة لجنس الرجال، قد تقبل من التقاليد السائدة ما تراه يكرس لها حقوقها، ولكنها ترفض ما ترى أنه واجبات أو مسؤوليات.

إنها ليست دعوة إلى تحرير المرأة- كما يزعم مدعوها-، ولكنها دعوة إلى تحرير الوصول إلى المرأة. لقد انعتق الجميع من كل الروابط، والقيم، والمسؤوليات الأسرية، والحقوق الاجتماعية، وحولوا العلاقات العائلية إلى وظيفة رتيبة أشبه بمحاضن تفريخ، فقد عزف الرجال عن الزواج؛ لوجود سبل محرمة يشبعون من خلالها غرائزهم، دون تحمل لما يترتب على الزواج الشريف من أعباء ومسؤوليات.

إن المفهوم الغربي لحرية المرأة قد أدى بها إلى أن تكون سلعة في سوق النخاسين- عبر دور الأزياء وعروضها-، وغانية في سوق الملذات والشهوات، يستعبدها الرجل- الذي يزعم تحريرها-، ويستمتع بها؛ لأنه لا يريد حريتها،

ولكنه يريد حرية الوصول إليها[١].

وهذه أقوال لبعض النساء في الغرب يذكرن فيه واقعهن مع الحرية ـ بمفهومها الغربي ـ ، وما جَنَيْنَهُ من هذه الحرية.

فهذه كاتبة أمريكية[٢]، تقول: « هل نُعَدُّ نحن النساء ـ بعد أن نلنا حرياتنا أخيراً ـ خائنات لجنسنا، إذا ارتددنا لدَوْرنا القديم في البيوت؟ وتجيب عن سؤالها فتقول: إن لي آراء حاسمة في هذه النقطة، فإني أصر على أن للنساء أكثر من حق في البقاء كربات بيوت، وإنني أقدر مهنتنا وأهميتها في الحقل البشري، إلى حد أني أراها كافية لأن تملأ الحياة والقلب»[٣].

فهذه المرأة الغربية تتكلم بلسان الأنوثة ـ بعد أن جربت حياة الحرية المزعومة ـ، في مجتمع أصبحت فيه المرأة العاملة حقيقة من حقائقه.

وهذه مجلة نسائية أمريكية ـ هي مجلة (نيو وُمَن) ـ ، تصرح فتقول: « أين الرجولة في أمريكا؟ ماذا حدث للرجل الأمريكي؟ وماذا فعلت حركة تحرير المرأة بالرجل؟ وأضافت: الرجل أصبح رخواً في معاملته مع المرأة، في الشارع، في المكتب، في البيت. . ».

هذه صيحة جديدة بدأت تصدر ـ مؤخراً ـ في المجلات النسائية ـ وخاصة المجلات الفكرية التي دعت وتبنت حركة تحرير المرأة، بعد عدة عقود من حركة تحرير المرأة الأمريكية، يبدو أن المرأة الأمريكية ـ نفسها ـ قد ندمت على ما فعلت حرية المرأة بالرجل الأمريكي[٤].

وهذه زوجة رئيس جنوب إفريقيا السابق[٥] ـ كما نقلت ذلك وكالة رويتر

(١) دعوى تحرير المرأة ـ صالح بن حميد ص٩ وما بعدها، (بتصرف).
(٢) اسمها: (فيليبس ماكينلي).
(٣) مشكلات المرأة المسلمة المعاصرة وحلها في ضوء الكتاب والسنة/ مكية مرزا، ص٢٩٥.
(٤) المرجع السابق: ص٣٠٥.
(٥) اسمها: (ماري دي كليرك).

للأنباء ـ تقول : « إن المرأة لم يعد لها أهمية في ظل الحرية الزائفة ، التي قضت على كيانها وشخصيتها ، وجعلتها عرضة للاستغلال البشع من أصحاب العواطف المنحرفة من الرجال ، ثم تقول : إن المكان الطبيعي للمرأة هو البيت ، الذي فيه تُكَوَّن الأسرة ، وترعى فيه الأبناء ، أجيال المستقبل ، وأمل الأمة في غدها المنشود»[١] .

وهكذا ، فإن هناك صرخات نسائية واضحة في الغرب تنادي بإيقاف طوفان الحرية والانحلال ، الذي جرف في طريقه المرأة الغربية ، وجرف معها القيم والأخلاق ، والراحة والهدوء ، ؛ فضاعت الأسرة ، وضاع معها الشباب ـ من فتيان وفتيات ـ ، وضاع معها الأمن والاستقرار .

وهكذا ، جرفت دعواتُ التحرر المرأةَ إلى التحلل ، وانتزعتها الأضواء ، والأبواق ، والوعود الكاذبة ، من بيتها ومملكتها ، لتلقي بها على حافة الطريق ، بعد أن شغلت مناصب حساسة مهمة من سياسية ، وإدارية ، واجتماعية .

تذكر صحيفة (نيويورك تايمز)[٢] تقريراً صادراً من مكتب التحقيقات الفيدرالية ، يشير إلى أن معدل الجريمة بين السيدات ـ أو الجريمة النسائية ـ ، ارتفع ارتفاعاً مذهلاً مع نمو حركات التحرر النسائية ، وتقول الصحيفة : « إن منح المرأة حقوقاً مساوية للرجل يشجعها على ارتكاب نفس الجرائم التي يرتكبها الرجل ، بل إن المرأة التي تتحرر تصبح أكثر ميلاً لارتكاب الجريمة» .

حرية المرأة في الإسلام:

إن الإسلام ألزم الرجل والمرأة العبودية لله الواحد الأحد ـ في صورة الخضوع لمنهجه ودينه ـ ، وهذه العبودية هي أعظم مراتب الحرية ، فالمسلم ـ من

(١) صحيفة الجزيرة ـ العدد (٦٨١٠) ، بتاريخ ٨/ ١١/ ١٤١١هـ الموافق ٢٢/ ٥/ ١٩٩١م .
(٢) نقلاً عن : صحيفة الجزيرة ـ العدد (٨٣٨١) ، بتاريخ ١٤/ ٤/ ١٤١٦هـ الموافق ٩/ ٩/ ١٩٩٥م .

خلال توجهه لله وعبادته له ـ يتحرر من كل سلطان، فلا يوجه قلبه ولا يطأطئ رأسه إلا لخالق السماوات والأرض، فالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، كلها مخلوقات عابدة لله، خلقها الله لمنفعتنا لا لنعبدها.

والإنسان في الإسلام يتحرر حتىٰ من سيطرة الهوىٰ وسلطان الشهوة، فالذي يسيطر علىٰ ضميره ودخيلته إنما هو سلطان الشرع، وهو يطرد سلطان الهوىٰ إذا عارض سلطان الشرع، قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** ﴾ [**النازعات**: ٤٠ – ٤١].

إذن هي حرية في صورة العبودية، ولا يمكن للبشرية أن تتحرر إلا بهذه العبودية. إن الحرية لدىٰ غير المسلمين تصبح حرية جوفاء لا معنىٰ لها، بل هي العبودية المذلة المهينة، وإن بدت في صورة الحرية[١].

ولأجل هذا، فإن الإسلام لا يعتبر المرأة جرثومة خبيثة ـ كما اعتبرتها اليهودية والنصرانية المحرفتين ـ، بل يقرر الحقيقة التي تزيل الهوان الذي وصمتها به الأديان المحرفة.

فالمرأة في ميزان الإسلام كالرجل، فرض الله عليها القيام بالتكاليف الشرعية، وهي تحمد إذا استجابت لأمر الله، وتذم إن تنكبت الصراط السوي[٢]، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ **مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [**غافر**: ٤٠].

إن الإسلام لم يحجر علىٰ المرأة، ولم يمنعها من ممارسة حقوقها التي شرعها الله سبحانه وتعالىٰ، ضمن حدود الأنظمة التي فرضها علىٰ المجتمع لسلامة أفراده، أما إذا تجاوزت المرأة ـ أو الرجل ـ هذه الحدود، فإن المتجاوز لا بد من

(١) انظر: المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم/ عمر الأشقر ص٣٦.
(٢) المرجع السابق ص٤٠.

مؤاخذته؛ كي لا يكون سبباً في إفساد غيره.

إن الحرية ـ التي تطالب بها المرأة حقيقة ـ هي أن تعامل في المجتمع على أنها مكرمة، كرمها الله تعالى كما كرم الرجل، وألا يهضمها الرجل حقوقها التي منحها الشرع، وألا يتجاوزها تحت شعار التسلط، أو القوامة ـ على خلاف ما أراد الله عز وجل لهذه القوامة ـ، فالقوامة ـ بمفهومها الإسلامي ـ هي جزء من نظام متكامل، يحفظ للمرأة حقوقها وإنسانيتها، فهي ليست تسلطاً واستعلاء(١).

إن من أعظم ما جاء به الإسلام للمرأة، أن صان كرامتها الإنسانية، وأوضح لها شخصيتها المستقلة، وأعطاها حريتها السامية، في العمل والتعلم، والتملك، وإبداء الرأي، فجعلها مسؤولة عن أعمالها ـ كالرجل تماماً ـ.

فالإسلام رفع عن المرأة لعنة الخطيئة الأبدية، ووصمة الجسم المرذول التي ألصقها بها رجال الدين السابقون، وجعل الإسلام المرأة كالرجل في الإنسانية، والمسؤولية، والواجبات الدينية(٢).

وقد أوصى الإسلام بالمرأة خيراً، وحض على تربيتها تربية صالحة، وبشر بمضاعفة الثواب في تربية البنات، عملاً بحديث الرسول ﷺ: «فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يُؤْذ جَارَهُ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أعلاه، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا». متفق عليه(٣).

---

(١) انظر: الإنسان وحريته في الإسلام/ محمود محمد بابلي ص١٩١.
(٢) انظر: حق الحرية في العالم/ وهبة الزحيلي ص٢٥٨.
(٣) صحيح البخاري ـ كتاب النكاح ـ باب الوصاة بالنساء ـ رقم الحديث (٤٧٨٧)، صحيح مسلم ـ كتاب الرضاع ـ باب الوصية بالنساء ـ رقم الحديث (٢٦٧١).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ تَسْأَلُنِي، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ فَقَالَ: مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنْ النَّارِ» رواه البخاري ومسلم(١).

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الأدب ـ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ـ رقم الحديث (٥٥٣٦)، صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة والآداب ـ باب فضل الإحسان إلى البنات ـ رقم الحديث (٤٧٦٣).